على مبارك

فلاح برنبال

كلما تخيلت صورة هذا الشاب المصرى الفلاح ، العائد من باريس وقد ارتدى ثياب الملازم فى الجيش ، وكانت ثيابًا مقصبةً ، ثم دخل قريته برنبال ، ودقّ باب بيته الريفى فى جنح الظلام ، والناس نيام وفتحت له أمه الفلاحة الباب .

كلما تخيلت هذه الصورة التى كتبها على باشا مبارك بقلمه ، تهتز مشاعرى .

وهناك لحظات فى حياة الإنسان تساوى كل حياته ، ومنها هذه اللحظة التى حدث فيها اللقاء بين على مبارك وأمه عند باب خشبى له ضبة من الخشب أيضًا . فقد كانت الأم تمسك بيدها المسرجة وهى تفتح الباب لترى فى الضوء الخافت ضابطًا واقفًا أمامها ، فتصرخ رعبًا ؛ لأن الضباط والعساكر لا يذهبون إلى البيوت فى ظلمة الليل إلا للشر .

ولكن الشاب الذى كان يدرك هذا المعنى ، قال لأمه :

– أنا على . . أنا على .

فصاحت الأم وهى تقترب بالمسرجة فى يدها نحو وجهه :

– على . . ابنى ؟

ثم اطمأن قلبها ، وتبدل الفزع إلى فرح ، ووضعت المسرجة على الجدار ، ورفعت كفها إلى فمها وزغردت ، وكانت بين أحضان ولدها العائد من فرنسا .

وصحت قرية برنبال على أصوات الزغاريد ، وحمل الفلاحون فوانيسهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، واتجهوا نحو بيت على مبارك .

هذا المشهد الرائع وصفه على باشا مبارك أبو التعليم وأبو الحضارة فى مصر الحديثة .

قرية مصرية فى الدلتا على مقربة من المنصورة استيقظت ذات ليلة لتحتفل بشاب من أبنائها على أنغام زغاريد النساء ، وانقلب الليل نهارًا ، وعلقت الفوانيس عند باب الحارة ، وفى البيت الريفى الصغير ، وفرشت الحصر ، وجلسوا جميعاً يتأملون الملابس المقصبة التى يرتديها الملازم على مبارك ، وخيل إليهم أنهم فى حلم .

كيف أصبح هذا الفلاح واحدًا من فئة الحكام ؟

إن القرى المصرية لم تشهد حكامًا خلال مئات السنين إلا من المماليك والترك والشركس وأشباههم .، وكانوا يشنون الغارات على القرى لينهبوها ، ولم يصدق أهالى برنبال عيونهم وهم يرون ابن قريتهم مرتديًا ثياب الملازم ، ولعلهم كانوا يمدون أيديهم إلى كتفيه ليتحسسوا الجوخ الأسود الذى صنعت منه (ثيابه) ؟ لأنهم كانوا لا يعرفون غير الجلاليب الزرقاء التى وصفوا بها .

ودخل الشاب مع أمه إلى غرفتها ، وأخرج من جيبه جنيهات ذهبية أعطاها لها وطلب منها إعداد طعام لأهل قريته جميعًا ، وسهرت القرية حتى الصباح .

هذا المشهد لا يتكرر .

كان على مبارك فى تلك الأيام يعمل مع (سليمان باشا الفرنساوى) فى إصلاح حصون دمياط ، فاستأذن منه لزيارة والدته فى قريته وكانت مدة الزيارة أربعًا وعشرين ساعة . وخلال هذه الساعات القليلة حدثت هذه الأحداث العظيمة فى هذه البانوراما الليلية المفاجئة .

إن هذه اللحظة هى التى فتحت أبواب المستقبل للمهندس الشاب على مبارك ، لأنه عاش لحظة الحضارة المصرية حياةً كاملةً بكلّ مقوماتها ، بعد أن عرف حضارة فرنسا معرفةً كاملة .

الشىء العجيب هو أن هذا الفتى الفلاح تعلم كل هذه العلوم فى مصر وأوربا ، وقد حدثتك عن لحظة الصدق فى حياته عندما التقى بأمه فى قريته لتتعرف على شخصيته النادرة العظيمة .

كان أبوه عمدةً للقرية ، وتعلم الصبى فى الكتاب ، وحفظ القرآن ، واشتغل كاتبًا مع أحد الموظفين الحكوميين فى عهد محمد على . ثم أخذوه مع بعض الفتيان من أبناء الأعيان المصريين ليتعلم فى المدارس الحديثة التى أنشأها محمد على . وكانت المدرسة فى (قصر العينى) قبل انتقال كلية الطب أو مدرسة الطب إليها من (أبو زعبل) حيث أقيمت لأوّل مرة تحت رياسة الدكتور كلوت بك .

وكانت مدرسة (قصر العينى) داخلية ، وقد فرض عليها النظام العسكرى فى الإقامة والطعام حتى أن الصبى على مبارك ضجّ من حياته فيها ، واعتقد أنها عذاب وتعذيب .

المهم أنه تعلم فى هذه المدرسة ، ثم ألحق بمدرسة المهندسخانة ، وتخرج فيها ، ثم أرسل إلى فرنسا فى البعثة ليكمل دراساته .

وكانت البعثة التى ألحق فيها على مبارك للسفر إلى فرنسا تضم عددًا من أمراء أسرة محمد على ومن بينهم الأمير إسماعيل الذى أصبح خديوى مصر . . وسافرت البعثة سنة ١٨٤٤ .

وشاءت المصادفة أن يكون القائد إبراهيم باشا بن محمد على فى باريس عندما عقد الامتحان النهائى لهؤلاء المبعوثين ومنهم ولده الأمير إسماعيل ؛ وكان ترتيب على باشا مبارك الأوّل بين الناجحين ، وقد أهداه إبراهيم باشا بيده هديّة التفوّق وهى كتاب فى الجغرافيا وعدد من الخرائط ، ثم أقام إبراهيم باشا حفل غداء تكريمًا لأعضاء البعثة .

درس على مبارك الهندسة العسكرية فى باريس ، وبعد عودته اشتغل ياورًا لسليمان باشا الفرنساوى أركان حرب الجيوش المصرية . . ثم تقلب فى وظائف الحكومة ، وأصبح وزيراً للمعارف ، بل إنه كان أشهر وزير معارف فى عصره ، وما زلنا نطلق عليه حتى اليوم لقب : أبى التعليم .

وكانت دراسة على مبارك فى فرنسا من أعظم المؤثرات فى تفكيره كفلاح مصرى ، فقد درس الهندسة العسكرية فى مدرسة متز الشهيرة ، ونال رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، وهذه الرتبة تعطى صاحبها امتيازات خاصة ، ولم يكن من السهل الحصول عليها مما يدل على القيمة الذاتية لعلى مبارك الذى تمازجت فى عقله حضارة مصر مع حضارة فرنسا .

وعندما عين ناظرًا لمدرسة المهندسخانة قام بعمل هام وخطير فى حياة النهضة المصرية الحديثة ، وهو تأليف الكتب المدرسية باللغة العربية ، حتى أصبحت كل العلوم الهندسية والعسكرية تدرس بالعربية ، ثم أنشأ مطبعةً خاصةً لمدرسة المهندسخانة طبع فيها أكثر من ستين ألف نسخة من هذه الكتب .

لقد كان الكتاب أهم شىء فى حياة هذا الرجل منذ البداية وحتى آخر لحظات حياته .

وفى عصر إسماعيل لمع نجم على مبارك وسطع ، وقد قلت إنه كان زميلاً للأمير إسماعيل فى الدراسة فى باريس ، وكان إسماعيل يعرف قدره . . فأنعم عليه الخديوى برتبة الباشوية وأسند إليه ثلاث وزارات هى المعارف والأشغال والأوقاف إلى جانب إدارته لمصلحة السكك الحديدية والقناطر الخيرية ، ونهض على مبارك بكلّ هذه الأعباء فى قدرة مذهلة .

وأنت إذا شاهدت القاهرة الحديثة وشوارعها وميادينها وحدائقها ومدارسها وقصورها

فلابد من أن تتذكر على باشا مبارك ، فهو المهندس الذى خططها ، وهو فى نفس الوقت صاحب كتاب (الخطط التوفيقية) الذى جعله موسوعةً جديدةً تكمل (خطط المقريزى) . . . وكتاب على باشا مبارك مرجع للحضارة المصرية الحديثة فى كل مجالاتها العمرانية والفكرية أو الثقافية ، ولولا هذا الكتاب ما عرفنا تاريخ حياة كثيرين من عظماء مصر وبناة حضارتها .

إن هذا الرجل من عجائب الزمان ، ونحن حائرون فى أمره ، فقد استطاع بمفرده أن يقوم بأعمال لا تستطيع القيام بها عشرات اللجان .

ومن مظاهر عبقريته الفذة أنه عندما حدث خلل فى القناطر الخيرية وأوشكت الدلتا كلها أن تتعرض للغرق ، وعجز المهندسون الفرنسيون عن إصلاح الخلل ، تقدم على مبارك بمشروعه لإصلاح القناطر ، ولم يقتنع الخديوى إسماعيل عندما عرض عليه المشروع . فعقد اجتماعًا حضره المهندسون الفرنسيون وحضره على مبارك واستعرضوا وجهات النظر المختلفة ، وأقر الفرنسيون مشروع على مبارك ، واعترفوا له ، ثم تولى بنفسه إصلاح الخلل ، وأنقذ دلتا النيل من الغرق .

وكان على مبارك مهندسًا على المستوى العالمى وهو صاحب نظرية الوحدة المعمارية فى المبانى العامة ، وقد استخدمها فى إنشاء محطات السكك الحديدية عندما تولى أمرها ، فجعل كل المحطات على نسق معمارى واحد فى كل البلاد بحيث تؤدى الخدمات على خير وجه ، مع اختلاف أحجامها فى المدن الكبيرة أو الصغيرة .

وعندما كان يتولى إدارة السكك الحديدية أراد وزير المالية إسماعيل باشا المفتش إضافة إيرادات السكك الحديدية إلى وزارة المالية ، فرفض على باشا مبارك ، ونجح إسماعيل المفتش فى الوشاية به عند إسماعيل الخديوى الذى فصله من كل وظائفه . . ثم لم يلبث أن أعاده إليها بعد أن عجز عن إدارتها .

كان هذا الرجل سابقًا لزمانه ، وعندما خطط القاهرة الجديدة وصل إليها حنفيات المياه النقية ومصابيح الغاز فى الشوارع والحوارى ، وأدخل الكهرباء لأوّل مرة عند أهرامات الجيزة ، ثم أراد إدخال نظام المجارى أو الصرف الصحى ، فسافر إلى باريس ودرس هذا النظام على الطبيعة هناك حتى ينفذه فى القاهرة . ولكن دولة إسماعيل كانت قد آذنت بالمغيب فلم ينفذ المشروع .

إن الأعمال العمرانية التى نفذها على باشا مبارك فى أنحاء مصر تمثل الوجه الحضارى الجديد للنهضة الحديثة ، وقد تمت فى عصر إسماعيل ، ولكن كثيرين لا يعلمون أن الخديوى نفسه كان مهندسًا ، وكان زميلاً لعلى مبارك فى الدراسة عندما سافر فى البعثة إلى فرنسا كما قلت لك .

وكان مرتب على مبارك أثناء البعثة ٢٥٠ قرشًا كان يأخذ نصفها لنفسه ، ويترك نصفها لوالدته فى قريته برنبال ، وكانت هذه هى عادته طوال فترة تعليمه فى مصر ، مما يدعونا إلى الوقوف مرةً أخرى لتحية الابن العظيم .

إن فلاح برنبال المتحضّر يمثل لنا نموذجًا رائعًا من نماذج عظماء المصريين الذين قادوا حركة النهضة وصنعوا النهضة بالفعل لا بالقول .

كان على مبارك هو الذى أنشأ دار الكتب ، ثم أصبحت هذه الدار أكبر جامعة حديثة فى مصر وتعلمت داخل أروقتها أجيال متعاقبة من المثقفين وشع منها شعاع النور فى حياتنا ، ثم أصبحنا اليوم نفتقدها ، ونسمع أصواتًا تقول إن الأجيال الجديدة لا تقرأ بسبب ارتفاع أثمان الكتب ، ونحن فى جيلنا كنا نقرأ بلا ثمن عندما اعتادت أقدامنا أن تسعى إلى باب الخلق ماشيةً لنوفر أجرة الترام .

كنا فى جيلنا نجد (الكتاب البلاشى) بلا ثمن فى دار الكتب ، وكان شعبنا يجد الماء بلا ثمن فى شىء اسمه (الحنفية البلاشى) على نواصى الحارات . . وكان على مبارك هو الذى أنشأ هذه الحنفيات للفقراء .

وعلى مبارك هو الذى أنشأ مدرسة دار العلوم التى تخرجت منها النخبة الرائدة من مدرسى اللغة العربية فى العصر الحديث ، وكان يختار طلبتها من الأزهر لسبب جوهرى أساسى فقدناه الآن ، وهو أن يكون الطالب من حفاظ القرآن والعارفين باللغة العربية ، فإذا استكمل دراسته من العلوم الحديثة فى دار العلوم يحدث التمازج بين الدراسة الأزهرية وبين الدراسة الحديثة .

وعلى مبارك هو الذى أنشأ (الانتياتر) وهو مدرج المحاضرات العامة ، وكان هذا المدرج فى درب الجماميز ، وله مواسم للمحاضرات التى يلقيها كبار الأساتذة ، وكان هو نفسه يحضر هذه المحاضرات مما شجع كثيرين من الباشوات على الحضور ، فسعى المثقفون المصريون لسماع هذه المحاضرات ، فكان هذا المدرج يمثل جامعة حرّةً قامت بدور هام فى حركة النهضة العلمية والثقافية .

قال الشيخ حسين المرصفى وهو من كبار علماء الأزهر ، وكان مدرسًا فى دار العلوم إنه

زار على باشا مبارك وزير المعارف فى مكتبه ، وكان مع الباشا رجل فرنسى ، وعندما سمعها يتحدثان بالفرنسية – وكان الشيخ المرصفى مكفوف البصر – حزن حزنًا شديدًا لأنه لا يفهم ما يقولان ، وخرج الشيخ من مكتب الوزير ، وأقسم ألا يعود إليه إلّا بعد أن يتعلم اللغة الفرنسية ، ونفذ الشيخ قسمه ثم عاد لزيارة الباشا بعد شهر أو بعض شهر وهو يحدثه بالفرنسية .

لقد كان على مبارك نموذجًا رائعًا من نماذج قادة الفكر ، وكانت شخصيته القوية الأخاذة تدعو العلماء إلى تقليده والسير على منهاجه .

إن هذا المهندس الضابط العالم كان حافظًا للقرآن منذ نشأ فى قريته ، وكان عارفًا بالعلوم والثقافات الإسلامية ، وعندما امتزجت الثقافة الفرنسية بالثقافة الإسلامية فى عقله ، أدرك معنى الحضارة ، فأخذ من أوربا ما ينفع ، ولم ينبهر بالمظاهر ، ولكنه أخذ الجواهر .

لقد عرف على مبارك مناهج التعليم فى فرنسا معرفةً كاملةً ، حتى أنه عندما كان وزيرًا للمعارف راجع هذه المناهج وأعاد دراستها بفكر متفتح وعقل ناضج ، ثم وضع بعد ذلك مناهج التعليم فى المدارس المصرية الابتدائية والثانوية ، وظلّت هذه المناهج سائدةً فى مصر أكثر من مائة سنة ، وخرجت الأجيال المتعاقبة من المتعلمين المصريين .

وأنت حين تزور المدرسة السنية للبنات وهى أعظم مدارس البنات التى أنشئت فى مصر ، سترى كيف كان يفكر على مبارك فلاح برنبال المتحضر ، ففى هذه المدرسة قاعات للرسم والتدبير المنزلى والموسيقى ، ولن تجد أمثالها فى مدرسة أخرى من مدارس البنات ، ولكنك ستجد لها مثيلاً فى باريس .

إن عمليه نقل الحضارة ليست سهلةً يسيرةً كما يتخيل بعض الناس ؛ لأن النقل العشوائى يصيب المجتمعات الناهضة بالنكسات والصدمات ؛ ولذلك فإن الأعمال العظيمة التى قام بها على مبارك خلال فترة قصيرة تعتبر من دلائل عبقريته الفذة فإن هذا الرجل لم ينفصل عن جلده ، وظلّ مصريًّا أصيلاً ، وهو الذى وصل إلى أعلى درجات العلم والثقافة فى مختلف فروع العلم والثقافة .

لقد أنشأ مجلة (روضة المدارس) على نفقة وزارة المعارف ، وجعل منها نافذةً جديدةً للفكر المستنير ، حتى يحبب التلاميذ فى القراءة ، وحتى تكون هذه المجلة مواكبةً للعلوم والآداب الجديدة والمتجددة .

وبلغ من حرصه على إحداث النهضة أنه أنشأ فى درب الجماميز معمل الكيمياء والطبيعة ، وفتح أبوابه للتلاميذ حتى يكونوا على صلة دائمة بالتطورات العلمية الحديثة .

تعددت اهتمامات على مبارك وتنوعت ، وكلما حاولنا ملاحقته فى أعماله الجليلة ، أدركنا أننا لا نستطيع إدراكه . فقد كان الرجل كما قال عن نفسه لا يعود إلى داره إلا فى الليل ، وأنه كان فى ليله مشغولاً بنهضة أمته .

وبرغم هذه الأعباء التى حملها على كتفيه طوال سبعين عامًا هى حياته الحافلة ، فقد ترك لنا ثروةً هائلةً من المؤلفات لم نستطع حصرها ، فقد ألّف وترجم عددًا كبيرًا من الكتب المدرسية عندما اشتغل بالتدريس فى المدارس العسكرية وفى مدرسة المهندسخانة التى تولى نظارتها ، وكان له الفضل الأول فى تعريب العلوم الهندسية والرياضية .

ولكن على مبارك ترك للمكتبة العربية كتابين من أهم الكتب التى ألفت فى العصر الحديث .

• الخطط التوفيقية فى عشرين مجلدًا ظهرت بين سنتى ١٨٨٧ – ١٨٨٩ ، والأجزاء الستة الأولى من الكتاب خصصها للقاهرة . والجزء السابع للإسكندرية . والأجزاء الباقية لمدن مصر وقراها . كما خصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والتاسع عشر للترع والرياحات ومنشآت الرى . والجزء الأخير لنقود مصر طوال كل العصور القديمة والحديثة .

وهذا الكتاب الموسوعى الضخم يضم تاريخ مصر العلمى .

• كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية هامة ، تدّل على اهتمامات على مبارك الخاصة بالعمران الذى هو أساس الحضارة .

وهذه القصة تحتاج إلى دراسة خاصة من ناحية بنائها وأسلوبها ، لأنها تعتبر من البدايات الأولى فى محاولة كتابة القصص الحديثة فى أدبنا .

إن فلاح برنبال الذى منحته فرنسا رتبة الملازم ثان كضابط فى الجيش الفرنسى من الشخصيات الفريدة فى حياة مصر المعاصرة .

إنك تستطيع أن ترى لمسات كفيه على أشياء كثيرة فى أنحاء مصر . . نوهو يقول لك عن منشآته فى القاهرة الجديدة . .

. . وجرى العمل ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة . والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة

بالأشجار المخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور .

لقد كان على مبارك واحدًا من أولئك الذين آمنوا بأن الحياة تقرأ على صفحات كتاب . . ومن عرف كيف يقرأ الكتب يستطيع الحياة . . أما أولئك الذين يؤلفون الكتب فإنهم صناع الحياة .

وعلى مبارك واحد من صناع الحياة فى مصر الحديثة .

محمد قدرى

أول مقنن للشريعة الإسلامية

كلما تحدثت مع أحد أصحابى عن محمد قدرى باشا ، سألنى :

– هل هو صاحب شارع قدرى فى السيدة زينب ؟

لقد أصبح الشارع أشهر من الرجل . . ولم يسألنى أحد :

– من هو محمد قدرى باشا ؟

هذه إحدى عجائب الفكر المصرى الحديث فى الجيل الماضى ، فقد أوشك النامس أن ينسوا تواريخ رواد النهضة إلّا قليلاً . ولكن الجهل الجديد من شباب المثقفين يبحث عن هؤلاء الرواد ، وهذه إحدى دلائل اليقظة التى تصنع النهضة .

ذات يوم شاهدت سيدةً ومعها ولدها الصبى الصغير أمام تمثال صغير للفيلسوف الألمانى لاينبتز فى مدينة لايبزج أمام مبنى الجامعة القديمة ، وكانت الأم تشرح لابنها تاريخ حياة هذا الفيلسوف عندما سألها عنه ، فجلست على دكة خشبية فى الحديقة التى تحيط بالتمثال وأنا فى قمة السعادة .

إن الشعوب المتقدمة تعلم أن حياتها موصولة ، وأن حاضرها امتداد لماضيها ، وهذا هو سبب تقدمها ، ووضعها فى مراتب العالم الأول .

ومن أخطر الأخطار التى تعرضت لها أجيالنا الجديدة ذلك الصوت المشئوم الذى يشبه صوت البوم ، عندما نعق يقول إن تراثنا هو سبب تخلفنا . ثم أصبح الجهال الذين يكتبون الكلمات الميتة دعاة للانفصال الحضارى فى حياتنا .

ما علينا . . يرحمهم الله أحياءً وأمواتًا .

كل هذا سببه محمد قدرى باشا الذى استطاع وحده أن يقوم بالأعمال التى تعجز عن القيام بها اللجان التى مازالت تحاول تقنين الشريعة الإسلامية .

ولد محمد قدرى فى ملوى بصعيد مصر من أب أناضولى وأم مصرية ، حوالى سنة ١٨٢١ ، وبعد أن تعلم فى تلك المدينة الصعيدية الصغيرة على طريقة عصره من حفظ بعض

سور القرآن فى الكتاب ، وتلقى الدروس فى المدرسة التى كان يطلق عليها اسم (مكتب ملوى) ويختار لها التلاميذ من أبناء بعض السادة ، ألحق بمدرسة الألسن فى القاهرة عندما كان ناظرها رفاعة بك .

وكانت الرحلة العلمية لهذا الفتى الأناضولى المصرى ترتبط فى الأصل بوالده الذى كان من أصحاب السلطة فى عهد محمد على ، ولكننا لا نعرف عنه شيئًا أكثر من أنه كان من موظفى الدولة فى ملوى .

واسم (محمد قدرى) من الأسماء المختارة التى كانت دولة محمد على وحفيده إسماعيل تحب إطلاقها على النجباء من التلاميذ الذين يتنازل آباؤهم عن أسمائهم سواء كانوا من الفلاحين أو الترك إلّا من كانت له عصبية وعائلة تضرب بجذورها فى تاريخ مصر من أمثال رفاعة رافع أو على مبارك وأمثالها من الفلاحين الصرحاء الأصلاء .

لقد حدثنى صديق المرحوم الأستاذ محمد شوقى الذى كان يعمل فى إدارة المطبوعات ثم اشتغل صحفيا فى أخبار اليوم عن خاله (أمين باشا سامى) فقال لى إن اسمه لم يكن (أمين سامى) ولكن الخديوى إسماعيل اختار له هذا الاسم لأنه لم يعجبه اسمه الفلاحى .

ولذلك فإننا نتعب فى محاولة الوصول إلى تاريخ حياة كثيرين من عظماء مصر فى العصر الحديث من أمثال : بهجت باشا ومظهر باشا وقدرى باشا وغيرهم ؛ لأن الخديوى هو الذى كان يختار هذه الأسماء .

وقد سمعت من بعض المعاصرين أن الخديوى إسماعيل كان يحلو له الحضور فى حفلات تخرج التلاميذ فى المدارس ويوزع عليهم الجوائز الثمينة ، فى هذه الحفلات كان يطلق عليهم أسماء جديدة غير أسمائهم الحقيقية مثل : تحسين أفندى ورسمّ أفندى . وغير ذلك من أسماء لطيفة .

ولذلك فإننا لا نحاول البحث عن حياة محمد قدرى فى ملوى ، ونشأته فى هذه المدينة الصغيرة التى زرتها منذ سنوات قريبة ، ورأيت فيها قريةً مصريةً تعيش فى العصور الوسطى ، ولعلها كانت عندما مشى الصبى (محمد قدرى) فى طرقاتها على الصورة التى رأيتها عليها بعد أكثر من مائة سنة .

لقد بدأت الحياة الحقيقية لهذا الفتى الأناضولى المصرى فى مدرسة الألسن عندما أصبح

تلميذًا لرفاعة بك . فظهر نبوغه وميله إلى العلم والترجمة ، فأتقن اللغة الفرنسية إتقانًا كاملاً إلى جانب إتقانه اللغة العربية .

وبعد تخرجه عينه رفاعة بك مدرسًا مساعدًا بالمدرسة . ثم أدرك ميله إلى دراسة القانون ، فوجهه إلى الدراسة فى الأزهر ، فحضر دروس الفقه على كبار المشايخ ، ودرس كتب الشريعة الإسلامية بعقلية جديدة تختلف عن عقلية مشايخ الأزهر .

أصبح الشاب المثقف محمد قدرى تلميذ رفاعة بك فى صراع فكرى بين ثقافتين إحداهما فرنسية والثانية أزهرية ، فحاول التوفيق بينهما عن طريق القانون .

لم تكن ثقافة أدبية بل كانت ثقافةً قانونية ؛ ولذلك اصطدم فى عقله القانون الفرنسى مع الشريعة الإسلامية وهى مصادمة عنيفة ليست مثل صدام الأفكار الاجتماعية أو الأدبية أو الفكرية ؛ لأن القانون له أصول وقواعد وأحكام ثابتة لا تقبل الجدل إلا فى إطار الحق والعدل والميزان المنصوب ، ولها منطق علمى ثابت الأركان .

القانون ليس نظريةً فى الشعر تقبل الصواب والخطأ ، ولكنه أحكام قاطعة لها مواد يحكم القضاة بها فى أخطر قضايا الإنسان ، وقد تصل به إلى حبل المشنقة .

لقد تكونت عقلية (محمد قدرى) أثناء دراسته فى مدرسة الألسن تكوينًا قانونيًّا ، وليس فى استطاعتى تحليل أسباب هذا التكوين القانونى لهذا الرجل النادرة الفذ من خلال دراساته أو مناهج مدرسة الألسن ، بل إن الدراسات التى قدمت عن هذه المدرسة العجيبة لم توضح لنا حتى الآن كيف استطاعت ضم دراسات متعددة تحت عنوان الترجمة ، مع أنها كانت تقوم بدور كليات الآداب والحقوق والاقتصاد والعلوم السياسية والفلسفية فى وقت واحد ! .

من تلاميذ هذه المدرسة (عثمان جلال) مترجم روايات موليير وأشهرها رواية (تارتوف) التى مصرها عثمان جلال وسمّاها (الشيخ متلوف) .. وهذا الرجل هو الرائد الحقيقى للمسرح المصرى لو كتب تاريخ المسرح فى مصر بطريقة علمية وليس على طريقة المشخصاتية .

ما علينا .. الهموم كثيرة .

نرجع إلى الحديث عن محمد قدرى باشا وأقول لك إننى أعرف أن أستاذى الدكتور محمد حسين هيكل باشا كان أول من تحدث عن قدرى باشا فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) .. وأنا أعود للكتابة عن هذا القانونى العبقرى بعد سنوات طويلة مما كتبه أستاذى .

لست أدرى الآن ماذا كتب الدكتور هيكل باشا عن قدرى باشا ، ولكننى أعلم أنه كان

أول من نبه إلى قيمة هذا الرجل العظيم فى حياة مصر المعاصرة .. ثم نسى الناس هذه القيمة العظيمة ، حتى عدنا نبحث عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى حياتنا ، فعدت للكتابة عن قدرى باشا ، وليس بين يدى الفصل الذى كتبه الدكتور هيكل باشا عنه ، وهذه خطيئة لا أغتفرها لنفسى .. وأرجو أن تغتفرها لى .

المهم ..

أدرك رفاعة بك مواهب تلميذه محمد قدرى ؛ ولذلك وجهه إلى دراسة الشريعة فى الأزهر الشريف ، وبذلك اجتمعت لمحمد قدرى ثقافة فرنسية وأزهرية كما قلت لك .. وعندما كلف الخديوى إسماعيل رفاعة بك بترجمة قانون نابليون الذى اشتهر فى عالم القانون باسم (الكود) ، لم يجد رفاعة بك أحدًا يعاونه فى الترجمة غير تلميذه (محمد قدرى) القانونى الضليع .

ولكن ترجمة قانون نابليون من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية كانت مقدمة الشرور لتقويض المجتمع المصرى ، عندما أراد الخديوى تمزيق السلطة القضائية ، فأصبحت فى مصر ثلاث سلطات قضائية هى :

* المحاكم الشرعية .
* المحاكم الأهلية .
* المحاكم المختلطة .

عاصر قدرى باشا مرحلة التمزق الذى وصلت فيه السلطة القضائية المصرية إلى هذه الثلاثية الغريبة العجيبة مما لم يحدث له شبيه فى العالم ، فأصبحت فى مصر محاكم شرعية ومحاكم أهلية ومحاكم مختلطة ، وكل نوع من هذه المحاكم له سلطات وله شرائع وقوانين يتوه فيها المواطن المصرى ولا يصل إلى حقه .

فى تلك الأيام تولى قدرى باشا ترجمة قوانين المحاكم المختلطة تمهيدًا لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة التى أراد إسماعيل الخديوى أن يجعلها مواجهة للمحاكم المختلطة بعد أن أصبحت الشريعة الإسلامية عاجزةً عن مسايرة التفرنج ، فأصبحت المحاكم الشرعية قاصرةً على قضايا الأوقاف والأحوال الشخصية .

وعين قدرى باشا مستشارًا فى محكمة الاستئناف المختلطة ، وهو منصب كبير يجعله مساويًا

للمستشارين الأجانب الذين استقدمهم الخديوى إسماعيل من أوربا لتولى مناصب القضاء فى المحاكم المختلطة ، مما يدل على المكانة القانونية لهذا الرجل المثقف العظيم .

لست أريد أن أحدثك عن المناصب التى تولاها قدرى باشا ؛ لأنه وصل إلى منصب وزير العدل أو ناظر الحقانية فى وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ عندما قامت الثورة العرابية فى عهد الخديوى توفيق . . كما كان وزيرًا للمعارف فى وزارة شريف باشا الرابعة فى عهد توفيق وهى الوزارة التى استقالت احتجاجًا على ترك السودان لبريطانيا أثناء ثورة المهدى .

كان محمد قدرى باشا رجلاً وطنيًّا عالى القدر فى كل مراحل حياته ، كما كان نزيه القصد فى كل أفكاره واتجاهاته ، وقد سيطرت عليه أفكار أستاذه رفاعة بك من ناحية الديمقراطية .

ولذلك تعاون مع شريف باشا الذى وضع أول دستور لمصر فى حياتنا المعاصرة ، ولا شك فى أن قدرى باشا كانت له يد فى كتابة هذا الدستور الأول الذى جاء نتيجةً لثورة أحمد عرابى ضد الاستبداد .

إن الحركة الديمقراطية المصرية مدينة لهذا القانونى الضليع الذى نسيناه فى غمره الأحداث المتلاحقة التى عاشت فيها بلادنا خلال مائة سنة من العذاب منذ سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٩٨١ ، ثم بدأنا نفتح عيوننا على حقائق تاريخنا المجهول ، ونتعرف على تطور الفكر التقدمى فى بلادنا الذى حمل شعلته رجال من أمثال قدرى باشا وأستاذه بل أستاذ الأجيال رفاعة بك .

لقد كان قدرى باشا وزيرًا للعدل فى أخطر لحظات التاريخ المصرى المعاصر ، وسط لهيب الثورة العرابية ، فشارك فى رسم الحركة الديمقراطية الجديدة مشاركةً فعّالةً عندما صاغ المواد الأساسية للحياة البرلمانية فى مصر .

اقرأ معى هذه المواد . .

* النواب مطلقو الحرية فى إجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا بوعد أو وعيد يوجّه إليهم .

* لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما ، وإذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة انعقاد المجلس فلا يجوز القبض عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس .

* كل نائب يعتبر وكيلاً عن عموم الأمة المصرية لا عن الجهة التى انتخبته فقط .

• اللغة الرسمية التى تستعمل فى المجلس هى اللغة العربية ، وتحرير المحاضر والملحقات يكون بتلك اللغة .

• لا يسوغ لأحد النواب أن يستنيب عنه غيره لإبداء رأيه .

• يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عرضًا ، وهذا العرض يحال النظر فيه على لجنة من المجلس لتحكم بدرجة اعتباره وهل يقبل أم يرفض . وإذا كان العرض متعلقًا بالحقوق الشخصية وتبين بالبحث أن مقدمه لم يسبق له تقديمه إلى المأمور المتعلق به ذلك الطلب أو إلى اللجنة التابع لها ذلك المأمور فإنه يرفض رأسًا .

هذه هى الديمقراطية المصرية فى لغة ١٨٨١ كما سجلها قدرى باشا فى هذه المواد من لائحة مجلس النواب ، وهى كما ترى تمثل فكرة الحرية فى مواجهة الاستبداد ، وأعظم شىء فيها هو أنها جعلت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة ، بعد أن كانت فى مصر لغتان هما التركية والعربية ، وكان الخديوى يصدر مراسيمه وأوامره باللغة التركية ثم تترجم إلى العربية بعد ذلك ، وظلت هذه الحالة مضطربةً فى مصر فكان فى قصر عابدين (دفتر تركى) و (دفتر عربى) وفى الدفترين أوامر ومراسيم خديوية قد تترجم ، وأحيانًا لا تترجم ، فوضع قدرى باشا الحد الفاصل وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهذه مسألة لا يستهان بها فى ذلك الزمان ، عندما كان يكتب فى مطلع كل خطاب رسمى كلمة :

– أفندم حضرتلى .

استطاع هذا المصرى المثقف .. الأناضولى الأب . المصرى الأم .. أن يحقق مصريته فى لغته ، ثم استطاع أن يقوم بعمل فكرى أعظم من ذلك فى إسلامه .

ألف قدرى باشا كتبه الثلاثة الخالدة التى جمع فيها الشريعة الإسلامية ، وصاغها فى مواد على أسلوب (قانون بونابرت) الذى كان قد شارك أستاذه رفاعة بك فى ترجمته إلى اللغة العربية .

هذه الكتب هى :

• مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان :

وهذا الكتاب يضم المواد القانونية فى المعاملات المدنية والشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، وقد أجازه شيخ الجامع الأزهر ، واعترف به كبار علماء الشريعة بعد

دراسات عميقة . وهو أول كتاب وضع الفقه فى مواد قانونية ، ولم يستطع أحد من رجال القانون حتى اليوم أن يؤلف كتابًا مثله .

* الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية .

* قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف .

إن قيمة هذه الكتب العظيمة التى نسيها من يحاولون الرجوع إلى شريعة الإسلام فى القانون ، تحمل دلالات عصر الانصراف عن الشريعة الإسلامية إلى القوانين المستوردة من فرنسا ، والتى طبقت ومازالت تطبق فى مصر .

لقد كان قدرى باشا هو الذى اشترك مع أستاذه رفاعه بك فى ترجمة (قانون نابليون) إلى اللغة العربية ، ثم أصبح مستشارًا فى محكمة الاستئناف المختلطة التى تنطق باللغة الفرنسية ، ولا تعرف العربية ، وكان فى الإمكان أن يصبح قدرى باشا من الفئة المتفرنجة .. وكان الله يحب المحسنين ! !

ولكن هذا العظيم رفض كلّ هذا بضميره ، وليس بوظائفه الرفيعة .

إن هذا التراث القانونى الرفيع الذى تركه لنا محمد قدرى باشا يدل على أن الرجل كان يريد أن يجعل شريعة الإسلام فى عصر المدنية الحديثة أعظم شأنًا – وهى أعظم – من قانون بونابرت .. الكود الذى عشنا معه قرنًا من الزمان حتى فقدنا أنفسنا ، ثم بدأنا نبحث عن أنفسنا فى شريعتنا .

إن رحلة العودة إلى النفس شاقة وصعبة ، ولكنها محتومة ، ولا سبيل إلى الفرار منها فى لحظات النهضة ومحاولة الإعادة لصنع الحياة واسترجاع الحضارة ، وقد أصبح كلّ ما نقرأه عن تطبيق الشريعة الإسلامية فى القانون كلامًا لا يجوز أن نلتفت إليه .

أنا أقول لكم إن شريعة الإسلام كانت هى القانون قبل أن تصبح فى مصر محاكم أهلية ومحاكم مختلطة .

وكان آخر كتاب مخطوط لم يطبع لمحمد قدرى باشا عنوانه :

(تطبيق ما وجد فى القانون المدنى مطابقًا لمذهب أبى حنيفة) .

لو كانت فوق رأسى قبعة لرفعتها احترامًا لهذا القانونى الضليع .. ثم أرفعها مرةً أخرى لأستاذى الدكتور هيكل باشا الذى سبقنى للتعريف بقدرى باشا .. ولكن .. أين القبعة ؟ ,

محمود حمدى .. الفلكى

أول من أقام مرصدًا فوق السطوح

كلما سرت فى شارع الفلكى بقلب القاهرة أذكر هذا العالم المصرى الكبير محمود حمدى باشا الفلكى .. صاحب الشارع ، وصاحب الميدان الشهير على ناصية الشارع .

كانوا فى الجيل الماضى يتفاخرون بألقاب العلم ، وأشهرها لقب المهندس والحكيم الفلكى .. ومن هؤلاء المتفاخرين اللواء محمود فهمى باشا المهندس رئيس الأركان العسكرية فى الجيش العراقى ، والدكتور محمد درى باشا الحكيم ناظر مدرسة طب القصر العينى ، صاحب أوّل مطبعة لطباعة كتب الطب التى كانت باللغة العربية . وهى المطبعة الدرية لطباعة الكتب الطبية) ، وكان مقرها فى حارة السقايين بحى عابدين .

أما محمود حمدى فقد كان أوّل من لقب نفسه بلقب الفلكى فى عصر النهضة المصرية الحديثة .. فإذا ذكر اسم الفلكى باشا فهو محمود حمدى أنبغ من أنجبتهم مصر فى علوم الرياضيات والفلك فى ذلك الجيل الأول من رواد النهضة فقد ولد فى سنة ١٨١٥ وتوفى فى سنة ١٨٨٥ .

تخرج فى مدرسة المهندسخانة ، وعين أستاذًا مساعدًا بها لأنه كان أوّل الناجحين . . وانصرفت همته إلى إتقان اللغة الفرنسية ، وترجم فيها بعض كتب الرياضيات إلى اللغة العربية ، عندما كانت حركة التعريب للعلوم الحديثة طريقًا للنهضة المصرية .

وأغرم الشاب النابغة بعلوم الفلك فدرسها فى المراجع الفرنسية دراسةً راسخةً مستفيضةً أهّلته لأن يصبح واحدًا من علماء الفلك العالميين فى عصره .

كان محمود حمدى يقفز فوق سلالم المجد قفزًا حتى أن محمد على أنعم عليه برتبة (صاغقول اغاسى) ، عندما كان أقرانه فى رتبة الملازم ، وهذا الاستثناء يدل على النبوغ المبكر لهذا الشاب المصرى الذى ولد فى قرية من قرى طنطا .

لقد كانت وظائف الحكومة فى عصر محمد على ترتبط بالرتب العسكرية ، ولو كانت

وظائف مدنية ، ويمنح أصحابها رواتب الرتب العسكرية وكان كادر الوظائف الحكومية واحدًا ، ولا يجوز فيه الاستثناء إلا بأمر من محمد على شخصيًا .

ولذلك كانت ترقية محمود حمدى إلى رتبة الصاغ مما يلفت النظر .

ومن المصادفات اللطيفة أن هذا الأستاذ الشاب كان من تلاميذه النابغة الآخر : على باشا مبارك .

وكانت تسميته بالفلكى قد اشتهرت فى القاهرة عندما ابتكر وضع التقاويم السنوية للتواريخ الهجرية وللميلادية والقبطية ، وكان يبين فيها مواقع الشمس والقمر لكل سنة من هذه السنوات .

ثم سافر فى بعثة إلى فرنسا للتخصص فى علم الفلك ، والرياضيات ، ومكث هناك تسع سنوات ، وقد اتخذ مرصد باريس محل إقامة له .. ثم دفعه حب العلم ، فزار معظم مراصد أوربا .. ثم دفعه الطموح إلى إدخال تعديلات وإصلاحات على آلات الرصد أقرها ونفذها علماء الفلك من الفرنسيين .

واشتهر محمود حمدى فى أوربا كلها ، ونشرت له المجلات العلمية أبحاثًا فلكيةً هامةً لفتت إليه الأنظار .

قدم محمود حمدى عندما كان فى فرنسا رسالةً فى التقاويم الإسرائيلية إلى مجمع العلوم فى بلجيكا ، واهتم هذا المجمع بالرسالة ونشرها سنة ١٨٥٥ . وخلاصة هذه الدراسة العلمية أنه حدد بداية تاريخ اليهود فى ٧ أكتوبر سنة ٧٦١ قبل الميلاد ، وذكر أن اليوم يبتدئ عندهم فى الساعة السادسة مساءً ، ويقسم إلى ٢٤ ساعة وتقسم الساعة إلى ١٠٨٠ قسما ، يقسم كل منها إلى ٧٢ جزءًا . وبحث فى أسبوعهم وشهرهم وسنواتهم ، والأيام التى تبتدئ بها شهورهم وسنواتهم ، وأعيادهم ، ومقارنة تاريخهم بالتاريخ الميلادى .

لقد اعترف المجمع العلمى البلجيكى بمحمود حمدى الفلكى المصرى ، ثم اعترف به المجمع العلمى الفرنسى أيضًا عندما قدم إليه رسالةً عن (المواد المغناطيسية الأرضية فى باريس وضواحيها) . ودعى هذا النابغة لتلاوة رسالته بنفسه أمام أعضاء المجمع الذى قرر طبعها ونشرها .

ثم نشرت (المجلة الأسبوعية) وهى مجلة المستشرقين فى أوربا الدراسة التى لم يسبق إليها أحد من علماء الفلك فى العالم القديم أو الحديث ، وهى دراسة فلكية عن (التقاويم العربية

قبل الإسلام) ، وقد حقق فيها تاريخ ميلاد النبى ﷺ ، وقال إنه صلوات الله وسلامه عليه ولد فى ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ ميلادية . وبحث فى رسالته عن عمر النبى ﷺ عند وفاته فبلغ ستين سنة شمسية و ٢٨ يومًا أو ٦٣ سنة قمرية و ٣ أيام .

وقال محمود حمدى إن العرب قبل الإسلام كانوا يعملون بالحساب القمرى ، وأنهم فى جاهليتهم لم يكونوا يعرفون الساعات التى ينقسم إليها اليوم .

ثم عاد محمود حمدى إلى مصر ليبدأ رحلة جديدةً من رحلات الحضارة المصرية الحديثة .

لقد طارت شهرته ، فأنعم عليه سعيد باشا برتبة (أميرالاى) وكلفه بوضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فوضع ثلاث خرائط :

- خريطة الوجه البحرى .
- خريطة الوجه القبلى .
- خريطة الإسكندرية .

وأصبحت خرائط الفلكى باشا مشهورةً باسمه ، يرجعون إليها عند التدقيق ، وكانت أول خرائط توضع للقطر المصرى .

وعندما أراد وضع خريطة للإسكندرية ، قام بعمل لم يسبق أحد إليه . فقد خطّط معالم الإسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أوّل عالم فى العصر الحديث كشف عن آثار الإسكندرية ، وموقع سورها القديم ، وقد ألف رسالةً باللغة الفرنسية عن الإسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وتتضمن رسالته نتاج اكتشافاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها وشوارعها ، وأفنيتها ، ومسارحها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها .

كان الفلكى باشا أول عالم خطط معالم الإسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الأرض ، وقد بذل جهودًا ضخمةً فى هذه الأعمال ، وكان معه جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتى عامل يشتغلون فى التنقيب والحفريات . وكان أول من خطّط سور البطالسة القديم تخطيطًا مبنيًّا على الاكتشاف والفحص الدقيق .

ثم رسم خريطة الإسكندرية القديمة التى أصبحت مرجعًا عند العلماء فى أبحاثهم .

لقد حاول علماء الحملة الفرنسية بحث مواقع الإسكندرية ، ونشروا أبحاثهم فى كتاب (وصف مصر) ، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الفلكى باشا لأنهم لم ينقبوا ولم يحفروا

الأرض ، بل اكتفوا بذكر نتائج المشاهدات والآراء التاريخية وما نقلوه عن مؤرخى العرب والإفرنج .

وقد عقد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى مقارنةً بين أعمال مهندسى الحملة الفرنسية وبين أعمال محمود باشا الفلكى ، وانتهى إلى أن الفلكى باشا كان أوّل عالم عصرى خطط معالم الإسكندرية القديمة .

كان عظيمًا هذا الرجل الذى لم نعد نذكر له غير شارع باسمه .. وميدان أمام بيته الذى هدم وقامت فوق أرضه عمارة حديثة .

آه لو كنا نحافظ على تراثنا الحضارى .. لأصبح بيت الفلكى باشا مُتحفًا كما أراد صاحبه الذى فتح بابه لكل باحث يريد الاطلاع على كتبه الثمينة وخرائطه وأدواته الفلكية ومرصده الصغير الذى أقامه فوق السطوح .

لقد شاهدت هذا البيت فى صدر الميدان ، وكان مكونًا من طابقين ، وحوله سور حديدى ، فقد كان من البيوت المشهورة فى حى عابدين ، وكان فى نفس الميدان بيت أحمد عرابى باشا الذى صودر ثم هدم أيضًا وقامت مكانه عمارة .

وماذا لو أقمنا تمثالاً لمحمود حمدى الفلكى وسط هذا الميدان ؛ لنذكر الناس بقيمة العلم والعلماء ؟ .

أحلام وآمال تطوف بالخيال .

المهم ..

حدث كسوف الشمس الكلى فى دنقلة سنة ١٢٧٦ هـ . والتفت العالم إلى هذا الحدث الذى لا يتكرر ، فكلف سعيد باشا والى مصر محمود باشا الفلكى بالسفر إلى دنقلة وملاحظة هذا الكسوف .. وقام العالم العظيم بمهمته ، ووضع رسالةً قدمها لسعيد باشا ، وبعث بها إلى أكاديمية العلوم فى باريس ، فنالت استحسان العلماء .

كان هذا الرجل عالميًّا كما قلت لك ، وهو من دلالات استمرار الحضارة المصرية وأصالتها ، وكلما قلبنا صفحات من تاريخ حياته ، وحياة رفاقه من صناع النهضة الحديثة ، أمسكنا بأيدينا حلقات هذه السلسلة الذهبية التى كادت تختفى بسبب الادعاءات البلهاء التى يلقى بها بعض الكتاب حروفا ميتةً على صفحات الصحف أو الكتب .

ليس من العيب أن يكون محمود باشا الفلكى قد تعلم فى فرنسا ، واستفاد من حضارة

أوربا لأن هذه الحضارة الأوربية ذاتها أخذت علومها وفنونها من حضارة الإسلام ؛ ونهر الحضارة يتدفق ولا يتوقف ، وله تيارات تعبر البلاد فى مختلف الأزمان ، وتحدد لنفسها المكان .

إن الحضارة أخذ وعطاء ، وقد حقق الفلكى باشا هذه النظرية بالفعل لا بالقول وقد ذكرت لك أنه أدخل تعديلات على آلات الرصد فى مرصد باريس ، وأخذ بها علماء الفلك فى فرنسا ونفذوها ، كما كانت دراساته وأبحاثه فى التقاويم الفلكية مذهلةً ومبهرة ، ولم يسبقه أحد إليها ، وقد اعترف بذلك المجمع العلمى البلجيكى والمجمع العلمى الفرنسى .. فهل بعد هذا شهادة ؟ .

إن مصر لا تستورد الحضارة ولا تستورد الثقافة ، ولكنها على مر التاريخ تأخذ وتعطى ، وهذه هى رسالتها الحقيقية فى كل المجالات .

أما الذين يزعمون أننا نستورد ثقافتنا ، فإنهم لم يعرفوا تاريخ مصر ودورها فى حضارة العصر الحاضر ، ونحن نكتب لهم هذه الصفحات لعلهم يراجعون أنفسهم ، فإما أن يسكتوا حتى يعلموا ، وما أن يعملوا بعد أن يتعلموا .

لقد أراد الفلكى باشا معرفة عمر الأهرامات والغرض الأصلى من تشييدها ، وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الأهرامات ، وموقعها من التناسب الفلكى .

يقول محمد مختار باشا :

«كنت موجودًا معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الأهرام ، وموقعها من التناسب الفلكى وأعلم علم اليقين أنه وصل إلى معرفة الغرض من تشييدها ؛ إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكان الذى بناها قصد أن يجعلها مزولةً ليعرف منها يوم شم النسيم ؛ وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فسبغ عليهم من آياته رحمةً وغفرانًا ؛ لأن كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء» .

هذه الرسالة الممتعة عن الأهرامات من وجهة النظر الفلكية تربط بين الحضارات المصرية العريقة وبين أفكار محمود باشا الفلكى عن طريق العلم .

ومن ألطف الأعمال التى قام بها الفلكى باشا فى القاهرة أيام زمان أنه أنشأ مدفع الظهر فى القلعة ، فكان الناس يضبطون ساعاتهم على طلقته فى الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، ولعله أراد بذلك أن ينبههم إلى قيمة الزمن فى حياة الإنسان أو يدعوهم إلى الصلاة التى تحين عادةً فى

تلك الساعة على اختلاف الفصول بالتقديم أو التأخير دقائق معدودات .

لقد تولى هذا العالم الفذ أعمالاً جليلةً .. فكان ناظرًا لمدرسة المهندسخانة ، وكان وزيرًا للأشغال وللمعارف .. وكان رئيسًا للجمعية الجغرافية . ومثل مصر فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد فى باريس سنة ١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الذى عقد فى البندقية سنة ١٨٨١ .

استطاع الفلكى باشا إدخال العلم فى الحياة اليومية للشعب المصرى ، ولكن الذى حدث بعد ذلك كان مؤسفًا ، فقد أصبح لقب الفلكى بعيدًا عن العلم منذ سرق بعض الأدعياء فكرة التقويم السنوى الذى ابتكره الفلكى باشا لإصدار تقاويم غريبة مازالت تصدر حتى الآن ، ويتنبأ فيها أصحابها بأحداث ستحدث ، ويستخدمون فيها ذكاءهم لما يمكن توقعه من وفاة ملك يعانى سكرات الموت أو وقوع حرب بدت بوادرها ، إلى غير ذلك من أحداث قد تتحقق .

ثم دخلت الخرافة فى حياة الناس ، حتى أنه أصبح من الأبواب الثابتة فى الصحف اليومية باب (حظك اليوم) : بل إنه تصدر كتب عن الأبراج والنجوم ، وتوجد مكاتب لهذه الخرافات (يشوف فيها) بعض من يحملون لقب الفلكى البخت والحظ والنصيب .

لقد استطاع محمود باشا الفلكى إخراج علم الفلك من الخرافة إلى العلم فى عصره عندما جعل هذا اللقب العظيم مرادفًا للعلوم والرياضيات وأوشك أن يقضى على أشهر محترف عرفته مصر وهو (أبو معشر الفلكى) ولهذا الرجل كتابان أحدهما صغير والثانى كبير ، وفيها جداول وطلاسم يشتغل بها الدجالون لمعرفة النجم والطالع .

وأنت إذا طالعت كتاب (أبو معشر الفلكى الكبير) أو كتاب (أبو معشر الفلكى الصغير) ستدرك أن محمود حمدى الفلكى عندما لقب نفسه بهذا اللقب ، كان يقصد القضاء على الخرافات التى تسيطر على المجتمع ، ومازالت تسيطر ، وليس هذا قاصرًا على مصر ، بل إنه منتشر فى أرقى المجتمعات الأوربية ؛ لأن الخرافة لم تمت فى حياة البشر ، وقد شاهدت الألمان يدخلون القاعة التى كان (مارتن لوثر) يترجم فيها الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية ، عندما هرب من حكم البابا بإعدامه ، ولجأ إلى قلعة (فاربتورج) فى مدينة « إيزناخ » فى جمهورية ألمانيا الشرقية .. وخيل لمارتن لوثر ذات ليلة وهو يكتب أوراقه ، أن الشيطان دخل غرفته ، فقذفه بدواة الحبر ، واصطدمت الدواة بالجدار الذى انتشرت عليه بقعة كبيرة سوداء .

شاهدت الألمان فى عصرنا ينبشون الجدار ذا البقعة الحبرية السوداء ؛ لعلهم يحصلون على

ذرة منها ، يصنعون منها حجابًا يعلّقه الواحد أو الواحدة فى رقبته ليقضى الحاجات ، أو يقرب بين الأحباب ، أو يشفى المرضى . وهكذا تسيطر الخرافة على عقول الناس .

ولكن سيطرة النجوم والكواكب أشد ؛ لأن بعض الشعوب عبدتها من دون الله ، وقد فسر محمود باشا الفلكى هذه الظاهرة عندما قاس الأهرامات قياسًا فلكيًّا وربطها بكوكب الشعرى كما قلت لك ؛ ولذلك أراد هذا العالم الكبير تنوير الناس عن طريق العلم ، واتخذ لنفسه لقب الفلكى ، رغبةً منه فى بعث حركة علمية حقيقية ترفض الخرافة ، وتحاول القضاء عليها ، وهذا التفكير فى ذاته من أعظم دلالات اليقظة المصرية . وسبب ذلك أن مصر بالذات تعتبر أضخم مستودع للمأثورات الشعبية التى بلغ عمرها سبعة آلاف سنة ، وهى بذلك تضم أكبر مجموعة من الأساطير والخرافات إلى جانب أكبر تراث علمى ، وقد اختلط العلم بالخرافة فى مصر منذ آلاف السنين لأسباب حضارية قديمة ، من أهمها ارتباط العلم بالكهنوت داخل إطار الأسرار ، حتى أن الطبيب أو المهندس أو الفلكى فى مصر الفرعونية كان كاهنًا .

إن الدور الذى قام به محمود باشا الفلكى كان من أهم الأدوار التى أدّتها الفئة المثقفة المصرية فى العصر الحديث من أجل تحرير الفكر المصرى عن طريق العلم ، وكان اتصال العقل المصرى بالعقل الأوربى ، كما رأيت فى أحوال الفلكى باشا ، يمثل ظاهرة لقاء الحضارات ، ولا يمثل الخضوع لحضارة عالية تسيطر على حضارات مغلوبة ، كما تصور بعض المهزومين الذين يطفون فوق السطح أحيانًا لظروف خاصة لا سبيل إلى دفعها . فنحن لا نملك منع القش من الطفو على السطح وسط السفن الهائلة التى تتحرك بمجاديفها وسط تيار النيل المندفع من الشلالات .

إن محمود حمدى الفلكى الذى أصبح له شارع وميدان فى قلب القاهرة ، يستحق أن نقيم له تمثالاً صغيرًا تحيطه الزهور وسط الميدان الذى يحمل اسمه .

هذا الرجل يمثل انتصار العلم على الخرافة .

محمد عثمان جلال

أول كاتب مسرحى فى مصر

أتعبنى هذا الرجل تعبًا شديدًا ، وأرغمنى على قراءة كتب ومجلدات عن المسرح المصرى فى العصر الحديث لأننى أحببت إعادة معرفته والتعرف إليه ، مع أن عباس محمود العقاد كتب عنه فصلاً فى كتابه « أدباء مصر » ، بل إننى كتبت عنه مقالاً فى مجلة الأدب منذ سنوات طوال .

ولكن عثمان جلال الذى عرفه العقاد ، والذى عرفته أنا أيضًا ، ليس هو هذه الشخصية التى تجلّت لى بعد أكثر من عشرين عامًا أو ثلاثين عامًا فى التعرف عليه ، وسط أكداس من أوراق الأوهام كانت تلقى بين أيدينا فنصدق بعضها ، ونكذب بعضها ثم نكتب عن شخصيات تاهت فى خضم الأوهام .

لقد عرفت الأستاذ حافظ جلال حفيد محمد عثمان جلال بك ، عندما كان مديرًا لمكتب رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا ، وكنت أتعجب لأن حافظ جلال كان واحدًا من مترجمى دائرة المعارف الإسلامية مع إبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس ، وكان لهم مكتب متواضع فى شارع حسن الأكبر فى حىّ عابدين ، يصدرون منه دائرة المعارف الإسلامية .

كان حافظ جلال من أبناء النعمة الظاهرة ، وكان مؤدبًا مهذبًا شديد التأديب والتهذيب ، إنه خلع معطفه الثمين فى ليلة من ليالى البرد الشديد على واحد من موظفى رياسة مجلس الوزراء ، عندما شعر بأن الرجل يرتعش من البرد .

لقد عرفت عثمان جلال بك عن طريق حفيده حافظ جلال ، ولكن هذا اللون من المعرفة لم تكن فيه ثقافة أو علم ، بل كان حديثًا عن تفاخر الحفيد بالجدّ من ناحية القدرات الذاتية التى تحتفظ فى الأسرة بالمناصب الرفيعة ؛ ولهذا عرفت الجد والحفيد على مستوى المجتمع ، ولم أبحث عن قيمة عثمان جلال الفنان ؛ لأننى عرفت فيه الموظف رفيع الشأن .

ومن خصائص المجتمع المصرى أنه ينظر كثيرًا إلى الشخصيات بوظائفها ، وليس بقيمتها ،

وهذه من المصائب ، ومن معوقات التقدم ، ومازالت هذه النظرية قائمةً حتى اليوم ، فى بعض الأحوال .

إن عثمان جلال الفنان من الشخصيات التى تستحق الدراسة المستعصية المتأنية ؛ لأنه كان الوحيد من تلاميذ رفاعة رافع الطهطاوى الذى استهواه الفن بمفهومه العصرى ، بينما كان السيد صالح مجدى بك وإبراهيم بك مرزوق ، وهما من تلاميذ رفاعة أيضًا ، ينظمان الشعر بالطريقة التقليدية ، ولكل واحد منهما ديوان مطبوع ، وكانت لهما أيضًا وظائف رسمية رفيعة .

ومن اللطائف أن إبراهيم بك مرزوق سمى ديوانه (الدر البهى المنسوق) حتى يحكم السجع مع اسمه .

لم يهتم مؤرخو الأدب المصرى الحديث بهؤلاء الأدباء الذين تعلموا فى مدرسة الألسن بين يدى رفاعة بك ، مع أنهم يمثلون مرحلةً من مراحل التطور فى النهضة الأدبية ، فقد كانوا يتقنون اللغات الأجنبية ، وكانوا أوّل من اطلع على الآداب الأوربية فى العصر الحديث ، بل إن هؤلاء الثلاثة : صالح مجدى وإبراهيم مرزوق وعثمان جلال ، كانوا يمثلون أوّل لقاء بين الأدب العربى والآداب الأوربية فى مطلع النهضة المصرية الحديثة ، وثلاثتهم كانوا شعراء . ولكن مؤرخى الأدب اهتموا بثلاثة آخرين هم : صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى وثلاثتهم أيضًا من الشعراء ، ولم تكن لهم صلة بالآداب الأوربية على وجه الإطلاق ، ولم تكن لهم معرفة بلغة من اللغات الأجنبية .

إننى عندما أكتب هذه الكلمات أحفر بأظافرى بين صخور جبل المقطم ، لأن تاريخ الأدب المصرى الحديث . لم يكتب حتى اليوم ، وهذه فضيحة أكاديمية يحمل وزرها كليات الآداب التى امتدت أطرافها من أقصى الصعيد إلى شواطئ الإسكندرية .

كان هؤلاء الثلاثة المثقفون : مجدى ومرزوق وجلال . من تلاميذ رفاعة بك كما قلت لك . ولكنهم كانوا يمثلون ركن الأدب فى هذه المدرسة العجيبة التى تخرجت فيها طلائع النهضة . ومع أن ثلاثتهم اشتغلوا بالوظائف الرفيعة ، وكان أهمها مناصب القضاء . فى المحاكم المختلطة بحكم ثقافتهم الفرنسية ، إلا أنهم اشتركوا فى النزعة الأدبية . ولكن محمد عثمان جلال تميز على صاحبيه بالاهتمام بالآداب الفرنسية شعرًا ونثرًا ومسرحًا ، بينما سلك مجدى ومرزوق الطرق التقليدية فى نظم الشعر ، ولم يجددا فيه شيئًا بل إن الثقافة الفرنسية التى عرفاها لم تؤثر فى

هذا الشعر التقليدى من قريب أو بعيد ، إلا ما كان من نظم الأناشيد الوطنية التى قلد فيها صالح مجدى أستاذه رفاعه بك مترجم نشيد المارسلييز الفرنسى .

ويبقى لنا من ركن الأدب فى مدرسة رفاعة بك هذا الأديب الشاعر الزجال المسرحى : محمد عثمان جلال .

وكان ظريفًا لطيفًا فيما يبدو ، وقد ظهر ظرفه وخفة دمه ، عندما رقى زملاؤه إلى درجات أعلى ولم تصل إليه الترقية ، فتقدم بشكوى إلى رئيس الوزراء رياض باشا ، لم يسبقه إليها أحد وكانت شكواه هى هذا الزجل اللطيف الذى قال فيه :

الخير عم الناس وفاض
ماحد إلا واستكفى
إشمعنى أنا ياعم رياض
وقعت من قعر القفه !

وبهذا الزجل استحق عثمان بك جلال الترقية التى حرم منها ، دون دخول فى باب التظلمات والشكاوى والأسباب والمسببات .

هذا الرجل أديب مطبوع ، وهو واحد ممن جنت عليهم الوظائف الرفيعة ، فضيعوا فيها أعمارهم ، جريًا وراء بريق خادع ، وجهد ضائع .

ولد محمد عثمان جلال فى إحدى قرى بنى سويف أيام محمد على ، وكان والده موظفًا من سلالة تركية ، وحفظ بعض سور القرآن فى كتاب القرية ، ثم التحق بالمدارس فى القاهرة على طريقة عصره ، حتى وصل إلى مدرسة الألسن ، فأتقن اللغات العربية والتركية والفرنسية .

وفى مدرسة الألسن بدا عليه الميل إلى الشعر والأدب والتعريب ، وكان ميالاً إلى الفن الروائى ، وأدرك رفاعة بك هذا الميل فشجعه على المضى فيما أراد ، وأنت تعلم أن أستاذ الأجيال رفاعة رافع كان يحتضن المواهب ، ويوجه تلاميذه نحو ما يحبون ، حتى تتدفق مياه الجداول فى النهر العظيم ، ويحدث الخصب فى الفكر .

كان إتقان جلال للغات العربية والتركية والفرنسية بمقدرة فائقة إحدى مواهبه الفذة فاشتغل فى قلم الترجمة ولما يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وكانت اللغات التى يتقنها تؤهله لهذا العمل الذى تحتاج إليه الحكومة فى أيامه ، فقد كانت اللغتان العربية والتركية رسميتين فى دولة محمد على وخلفائه ، وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة التى تحتاج إليها الدولة فى

معاملاتها مع فرنسا التى ارتبطت بمصر فى ذلك العصر ارتباطًا يكاد يكون كاملاً فى كل مجالات بعث الحضارة الحديثة فى وادى النيل .

ولكن أعمال الترجمة الرسمية فى الديوان ، لم تكن هى هدف هذا الفتى ابن الستة عشر ربيعًا ، فقد تطلع إلى ترجمةٍ من نوع آخر ، وهى ترجمة المسرحيات بوجه خاص .

لقد ترجم جلال أساطير لافونتين وسماها (العيون اليواقظ فى الحكم والمواعظ) وهى تعريب شعرى باللغة الفصحى ، واشتهرت هذه الترجمة شهرةً عظيمةً أيام الاهتمام بالآداب الرفيعة ، واعتبرت (العيون اليواقظ) من عيون الأدب ، وهى تدل على براعة عثمان جلال ، وقدرته الفائقة فى الترجمة الفنية العالية ، كما تدل على تمكنه من اللغتين العربية والفرنسية بمفهوم المعرفة لأسرار اللغتين وما تضمان من فن التعبير الشعرى .

ولكن عثمان جلال كان يتجه إلى المسرحيات بوجه خاص ، قبل أن يظهر فى مصر أو غيرها كاتب يهتم بهذا اللون من الأدب الجديد الذى لم يعرفه العرب فى العصر الحديث ؛ ولذلك فإننى قلت لك إن تاريخ الأدب المصرى لم يدرس دراسةً علميةً حتى اليوم ؛ لأننى عندما قرأت ماكتب عن المسرح ، وهو فن جديد ، وجدت المؤلفين يهتمون بالممثلين ولا يهتمون بالرواد فى نقل هذا الفن إلى حياتنا ، أى أنهم نظروا إلى المسرح من وجهة نظر المشخصاتى لا من وجهة نظر الكاتب الأديب الفنان . ولذلك قصروا فى دراسة (عثمان جلال) وهوايته العظيمة التى جعلته يترجم عيون الأدب المسرحى الفرنسى ، ويطبعها وينشرها . ويجمع مجموعةً نادرةً منها سماها (الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) طبعت بالمطبعة الشرقية فى القاهرة عام (١٨٩٣ – ١٨٩٤) .

كان جلال هو الذى عرف الناس باسم (موليير) قبل أن يظهر المهرج اليهودى (يعقوب صنوع) الذى ألف هزليات مبتذلة لها صفة سياسية لمهاجمة سيده ومولاه الذى أنعم عليه ورباه خديوى مصر إسماعيل باشا ، ثم تجرأ صنوع فلقب نفسه بلقب (موليير مصر) .

الشىء العجيب أن المؤلفين والباحثين ، يهتمون بدور (يعقوب صنوع) فى المسرح المصرى ، ولا يعرفون دور عثمان بك جلال . لأن الأسباب السياسية كانت أقوى من مفهوم الثقافة والحضارة فى مصر الحديثة ، ولكننا اليوم نعيد النظر فى كل هذه القضايا حتى لا يختلط الأمر على أجيال تأتى من بعدنا ، وتلومنا على التقصير فى تبصيرها بجوانب غامضة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث .

لم تعد الأسباب السياسية الطارئة فى حياة الشعب المصرى ، والتى زالت وسقطت بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، مما يوجب علينا التحكم فى إصدار الأحكام الثقافية أو الفنية فى حياة شعبنا ومهما كان أثر السياسية فى حياة الفن ، فإن النظرة إلى مفهوم الفن يجب أن تعرف كل الحقائق لتدرك الفارق بين المهرج وبين الفنان .

إن عناصر الإبهار الوقتية فى الفنون لاقيمة لها إلا فى لحظة الإبهار ، ثم تنطفئ الصواريخ ولو بلغت عنان السماء ، وتبقى على الأرض الأعمال الجادة الرزينة المؤثّرة فى مجرى تيار الثقافة ، وهذه الأعمال ترتبط بالعقل والفكر والفلسفة وأشياء أخرى عميقة صعبة ، لا علاقة لها بتهريج المهرجين ؛ لأنها من أعمال أصحاب الثقافة الرفيعة التى تقوم على العلم والموهبة داخل إطار واحد .

وعثمان جلال كما دل عليه لفظه وتعبيره عندما نشر رواياته المترجمة عن : موليير وراسين قال إنها : علم التراجيديا ، وسماها :

(الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) .

وهذه التسمية تدلك على شخصية (عثمان جلال) الذى كان ينظر إلى المسرح نظرةً علميةً منذ أكثر من ثمانين سنة ، فقد توفى سنة ١٨٩٨ عن سبعين عامًا ، بعد أن كرس حياته كلها لنقل المسرحيات الفرنسية إلى العربية بطريقة التقصير أو الاقتباس وأشهر هذه المسرحيات هى :

- مدرسة الأزواج .
- الشيخ متلوف (طرطوف لموليير) .
- مدرسة النساء .
- الحزين أو .. النكدى .
- استير .
- النساء العالمات .
- أفيجينيا .
- الإسكندر الأكبر .
- السيد .
- هوراس .
- الثقلاء .

ونحن لم نعرف عثمان جلال كاتبًا مسرحيًّا إلا فى مسرحية (الشيخ متلوف) التى اقتبسها عن رواية (طرطوف) لموليير . وهى أشهر أعماله على وجه الإطلاق . وقد قدمت على خشبة المسرح طوال نصف قرن من الزمان على الأقل . وتعتبر من وجهة نظر الفن المسرحى من النصوص الرائدة فى الاقتباس ، أو التمصير . وقد تعلم منها كتاب كثيرون كيف يمصرون المسرحيات .

أما المسرحيات الأخرى التى ترجمها عثمان جلال . وقد ذكرت لك بعضها ، فإنها تدل على عبقرية الاختيار ؛ لأنها ترجمت بعد عصره ترجمات متعددة وقدمت للناس فى مصر وخارج مصر عن طريق فرق مسرحية متعددة . والاختيار فى ذاته يحمل دلالة الفهم لمتطلبات المجتمع من الفنون الأجنبية ، وهذا وحده يحتاج إلى الإدراك الواعى الذى تميز به عثمان جلال رائد المسرح المصرى فى العصر الحديث .

قالوا إنه من سلالة تركية ، وكانت له زوجة مصرية ، ويبدو أن هذا القول كان له تأثير فى اتجاهاته الفنية ؛ لأن ترجماته للمسرحيات كانت تتم باللهجة المصرية ، وليس باللغة العربية الفصحى ، ولم تكن هذه اللهجة المصرية العامية تستخدم فى الكتابة أو الترجمة فى ذلك العصر ، بل إنها استخدمت فى الأغانى وحدها من بين كل الفنون القولية ، وقد جمع الشيخ محمد شهاب الدين هذه الأغانى العامية فى مصر والشام أيام محمد على فى كتابه الشهير (سفينة شهاب) ، وألف بعض الشعراء أغنيات باللهجة العامية المصرية ومنهم السيد على الدرويش الشاعر الرسمى لدولة محمد على . وصاحب الأغنية الشهيرة :

طربوش مايل على خده .

ومنهم الشيخ على الليثى شاعر الخديوى إسماعيل ، وصاحب الأغنية الشهيرة يوم عزل إسماعيل عن العرش :

أنا اللى استحق اللى جرى
ماحد غيرى اللى انظلم
طاوعت أسباب الهوى
حتى غدا خصمى حكم

لم تكن اللهجة العامية تستخدم فى كتابة النثر الفنى ، بل إن اللغة الفصحى المستخدمة كانت ثقيلةً مليئةً بالأسجاع ، وقد استخدمها (عثمان جلال) نفسه فى ترجمة رواية (بول

وفرجينى) وسماها (الأمانى والمنة فى حكاية قبول وورد جنة) .

كان قد ترجم اسم (بول) إلى (قبول) .. وترجم اسم (فرجينى) إلى (ورد جنه) على طريقة عصره فى الالتزام بالسجع ثم بالمحسنات اللفظية ، كما كان كتابه (العيون اليواقظ) الذى ترجمه عن (لافونتين) دليلاً على التزامه بالقيم اللغوية فى أيامه من ناحية الفصاحة اللفظية الجافة المرهقة .

ولكن .. ماذا حدث فى ترجماته للمسرحيات ؟ التمصير .. استبدل بالشخصيات الأجنبية شخصيات مصرية .. إضافة بعض المفاهيم المتعارف عليها فى المجتمع المصرى إلى مفاهيم موليير أو راسين أو كورنى .

كل هذه الأشياء كان يقوم بها عثمان جلال عندما يترجم المسرحيات الفرنسية ، وقد يضيف إليها إضافات مصرية خالصة كما حدث فى مسرحية (الشيخ متلوف) ، بل إنه حاول التأليف المسرحى الخالص فى رواية (الخدامين والمخدمين) ، وهى مسرحية من فصلين زجلية شعرية ، باللهجة العامية ، وهى كوميديا تمثل السلوك فى المجتمع المصرى الحديث عندما كانت توجد فى القاهرة مكاتب خاصة للمخدمين ، وكان المخدم يقوم بأدوار كثيرة قد تصل إلى منافاة الشرف والكرامة ، وهذه المسرحية تمثل الفكر الاجتماعى عند عثمان جلال ، عندما حاول معالجة مشكلة اجتماعية فى مسرحية .

لقد كان عثمان جلال فاهمًا لرسالة المسرح فى المجتمع ، ولكنه لم يستخدم عناصر الإثارة السياسية أو الوطنية أو الدينية فى كل ما ترجمه ومصره أو ألفه من مسرحيات ، بل كان بحكم ثقافته يحاول ربط المسرح بالمجتمع . كما أنه لم يكن من دعاة التغريب الذين جاءوا من بعده فقدموا ترجمات لمسرحيات عالمية بقصد العرض المسرحى للمتفرج الذى يراها وكأنه يقرأ كتابًا يقدم له على خشبة المسرح بهدف التثقيف أو الإمتاع وإظهار القدرات فى التمثيل والإخراج المسرحى .

كان عثمان جلال فيما أعتقد يريد إدخال المسرح العالمى فى الأدب العربى الحديث كفن جديد قائم بذاته ، ثم اصطدم منذ البداية باللغة .. لغة المسرح ، وحل جلال هذه المشكلة عندما استخدم العامية المصرية لغةً جديدةً فى مسرحه .

إن اللهجة العامية المصرية التى استخدمها عثمان جلال فى نصوصه المسرحية تحتاج إلى

دراسة عميقة ، بل إنها تحتاج إلى معجم لألفاظها حتى نصل إلى حقيقة هذه التجربة العجيبة الفريدة .

لم يستخدم أحد اللهجة المصرية فى المسرح الحديث قبل عثمان جلال ، بل كانوا يستخدمون اللغة الفصحى ، حتى جاء (يعقوب صنوع) فاستخدم هذه اللهجة تقليدًا لعثمان جلال ، ثم استخدمت العامية المصرية بعد ذلك فى المسرح .

وظل المسرح يتأرجح بين العامية والفصحى حتى اليوم . بل إن لغة المسرح مازالت هى العقبة الكبرى التى يصطدم بها كتاب المسرح .

ولكن .. لماذا استخدم عثمان جلال اللهجة العامية فى المسرح ؟

يخيل إلى أنه عندما قرأ المسرحيات الفرنسية أدرك أن لغتها يمكن أن تصل إلى جمهور المشاهدين ثم عرف أن اللغة الفصحى فى عصره ، وهى لغة السجع والمحسنات اللفظية يصعب وصولها إلى الجماهير ، فلم يحاول الكتابة بلغة فصحى بسيطة عندما صعب عليه ذلك ، فكتب حوار مسرحياته باللهجة العامية وهى أسهل عنده من لغة السجع والمحسنات والشعر المصنوع فى قوالبه .

لقد كان عثمان جلال أول كاتب استخدم اللهجة المصرية فى المسرح ، عندما كتب (الشيخ متلوف) وغيرها من المسرحيات المترجمة ، وبرغم أن مترجمى المسرح استخدموا الفصحى بعد ذلك فقد ظلت تجربة عثمان جلال هى الأساس فى كتابة المسرح ، وكانت لها آثارها الخطيرة فى لغة المسرح حتى اليوم ، فنحن نملك لغتين للمسرح إحداهما فصحى والثانية عامية . فتختلف لهجاتها المصرية والشامية والعراقية والمغربية ، وهذا الازدواج اللغوى من أسباب أزمة المسرح .

ولكن عثمان جلال كان معذورًا فى استخدام اللهجة العامية لأنه لم يجد بديلاً لها فى فصحى زمانه المثقلة بالسجع والمحسنات ، حتى إن عبد الله باشا فكرى وهو من أصحاب البيان فى عصره ، وكان وزيرا للمعارف ، اضطر إلى استخدام اللهجة العامية فى رسائله لأصدقائه حتى يكون خفيف الظل فى هذه الرسائل اللطيفة التى ظهرت فيها بلاغة هذا الكاتب المبدع عبد الله باشا فكرى .

لقد فجّر عثمان جلال قضية الفصحى والعامية منذ قرن من الزمان .. ونحن مازلنا نبحث عن حل للتقريب بين الفصحى واللهجات العامية حتى اليوم .. فهل نصل إلى هذا الحل ؟ .

هذا سؤال جوابه على فم الزمان حين تنطق الشفاه جميعًا بلهجة واحدة فصيحة حديثةمعاصرة .. ثم تصبح للمسرح لغة واحدة كما أصبحت للصحافة لغة واحدة .